الفكر الصوفي من التأصيل إلى التحول

قراءة في مسار فكر التصوف ومنهج الشيخ زروق في تصحيح مفاهيم التصوف

د.عبد الكريم بناني[1]

هذه الدراسة المتواضعة هي محاولة لتلمّس بعض المفاهيم التي انبنى عليها التصور النظري للفكر الصوفي انطلاقا من محاولة التأصيل مرورا بمرحلة التحول، وختاما بمنهج التصحيح من خلال أنموذج الشيخ أحمد زروق البرنسي الذي أسّس لمفاهيم جديدة أغنت المعجم الصوفي .

لذلك، تأتي عناصر الدراسة متضمنة القراءات التالية:

أولا : مفاهيم التعريف والتسمية

-/- ثانيا : مفاهيم النشأة والتأصيل

ثالثا: مفاهيم التصحيح من خلال أنموذج الشيخ زروق

فأقول وبالله **التوفيق**، ومنه أستمد العون والهداية

أولا : مفاهيم التعريف والتسمية

لم يتفق الدراسون والباحثون القدامى والمحدثون على تحديد موحّد للمفهوم المصطلحي للتصوف، وهذا راجع إلى اختلافهم حول ماهيته، فهم يرون أنه يشتمل على أحوال ومقامات ويتضمن أخلاقا، ويهدف إلى سلوك الطريق الموصل إلى الله تعالى وفقا للاجتهادات الخاصة التي يتخذها كل منهم في هذا السبيل، فهناك من يعرّف التصوف بـ"**بدايات الطريق**"، والبعض الآخر يعرفه انطلاقا من"الغاية والهدف" أو "**نهاية الطريق**"، ونجد أيضا من يتكلم فيه بلسان الحال الذي ينفعل به أو المقام الذي يستقر فيه في وقته"[2] وهذا ما دعا العلامة ابن خلدون (ت808هـ) إلى القول بأن التصوف ليس بعلم يمكن التعبير عنه، إذ "العلم الذي يعبر عنه إنما هو العلوم الاصطلاحية الكسبية، وأما الوجدانية فلا"[3].

---

[1]- باحث في الفكر الإسلامي- الرباط.

[2]- انظر كتاب أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة.د.مصطفى حلمي.ص10.دار الدعوة للطباعة والنشر(د.ت.).

[3]- شفاء السائل لتهذيب المسائل.عبد الرحمن بن خلدون.ص204.الدار العربية للكتاب1991.

ومن الذين اجتهدوا في تعريف الفكر الصوفي انطلاقا من بدايات الطريق محمد بن علي، أستاذ الجنيد(ت200هـ) في التصوف، حيث قال:"التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم مع قوام كريم "[4].

وعرفه أيضا أبو القاسم الجنيد (ت200هـ)[5] معبرا عنه بأحوال النهاية فقال:"هو أن يميتك الحق عندك ويحييك به"[6]، وقال فيه أبو عثمان بن سعيد بن اسماعيل(ت298هـ)[7]"التصوف الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع رسول الله باتباع سنته ولزوم ظهور العلم"[8].

أما القشيري(ت645هـ)، فقد تناول فيه **الجانب الاصطلاحي**، فقال:"يقال له متصوف والجماعة متصوفة" قال:"وليس لهذا الاسم من جهة العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه لقب"[9]، ثم تحدث فيه البغدادي، فعبر عن التصوف بعلامة، قال فيها:"علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخفى بعد الشهرة وعلامة الكاذب العكس"[10].

وهذه التعاريف في مجملها ترشدنا إلى أمر هام، وهو جانب الغموض والتباين في المصطلحات التي استعملها هؤلاء، فبين تناول التعريف ببدايات الطريق أو بأحوال النهاية أو بعلامة أو ..... تظهر مصطلحات وجدانية روحية لا يطّلع عليها إلا الملّم بالطريقة، وهذا نفس ما علّل به هؤلاء هذا الغموض، فقالو إن "تعبيراتهم وجدانية ذوقية ولا يمكن التعبير عنها إلا لمن يشارك في وجدانها وذوقها"[11].

وقد حاول د.عناية الله الأفغاني تبسيط التعريف فتناول **جانب الأهداف** التي يتوخى التصوف الوصول إليها وهي جانب الأخلاق، فجاء تعريفه كالتالي: "التصوف هو الالتزام بالصفات الحميدة التي أوردتها الأديان في رسالتها أو هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق أو هو دوام العمل للوصول إلى الحق على حال لا يعلمها إلا الحق"[12].

---

[4]- الرسالة القشيرية في علم التصوف.أبو القاسم القشيري.552/2.طبعةبيروت.لبنان.(د.ت.).

[5]- الجنيد بن محمد الخزاز القواريري أبو القاسم شيخ وقته، أصله من نهاوند، مولده ومنشأه ببغداد، درس الفقه على أبي ثور وكان يفتي وهو ابن عشرين سنة" . طبقات الأولياء. ابن الملقن. تحقيق: شريبه.ص126.دار التأليف 1973.

[6]- الرسالة القشيرية في علم التصوف.أبو القاسم القشيري.552/2.طبعةبيروت.لبنان.(د.ت.).

[7]- أبو عثمان سعيد بن عثمان بن سعيد بن منصور الحيري، أقام بنيسابور ونشر التصوف بخراسان". طبقات الصوفية، محمد بن الحسين السلمي.170/1.ط.القاهرة1969.

[8]- الرسالة القشيرية.139.138/1.مرجع سابق.

[9]- الرسالة القشيرية.550/2.مرجع سابق.

[10]- أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة.ص11. مرجع سابق.

[11]- نفسه.ص.10.

[12]- جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماءالكلام.د.عناية الله الأفغاني .ص37.الدار المصرية اللبنانية.ط1407/1987.

(ت748هـ) في "الوفي بمعرفة التصوف والصوفي"[21] وأبو محمد عبد الرحمن بن الحسين السلمي، يقول في كتابه "بيان أحوال الصوفية": " اعلم وفقك الله للخيرات، أن التصوف مأخوذ من أهل الصفة الذين ترتّلوا[22] على حكم رسول الله ﷺ، فكانوا أضياف المسلمين وكان النبي ﷺ يقعد معهم ويأنس بهم وكانوا فقراء المهاجرين الذين سماهم رسول الله ﷺ صعاليك المهاجرين، وكانوا في فقرهم كما وصفهم الله في كتابه بقوله ((للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم))الحشر8. فبيّن أنهم لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا معلوم ولكنهم قاعدون على ما يفتح لهم من غير سؤال ...يبتغون فضل الله في دنياهم ورضوانه في عقباهم ...لا يعرفهم ولا يعرف طريقهم إلا من هو في درجتهم وعلى طريقتهم، يعرفون بسيم العبادة، وكان النبي يقعد معهم ويأنس بهم، لا يلبسون المرقعة والملونة من الثياب، لا يسألون الناس إلحافا، لأن ألسنتهم غنية عن سؤال من يملك الملك رضى بما يجري عليهم، فكيف تنطق ألسنتهم بسؤال العبد؟...فهذا هو طريق التصوف"[23].

فيتضح من هذا النص أحوال الفكر الصوفي التي تتأس على المنهج الابتغائي الدائم (فضل الله في الدنيا ورضوانه في الآخرة)، والالتزام بوسائل العبادة التي تقرّب إلى الزهد والورع والتقوى وتبعد عن السؤال والطلب وكل الأخلاق الذميمة، **وبذلك تترجح النسبة إلى أهل الصفّة.**

وهكذا يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أن مصطلح التصوف كمفهوم حدّي لم يكن واضحا في القرون الأولى بالمعنى الحدّي للمصطلح، وإنما كان المعهود الركون إلى العبادة، لهذا ظهر الاختلاف في توضيح المراد من الفكر الصوفي، معلم وجداني يرتبط بالقلوب، بين التعريف ببدايات الطريق، أو نهاية الطريق، أو الغايات والأهداف التي يبتغي التوصل إليها، وهي كمال الأخلاق.

---

[21]- ص42. تحقيق وتعليق:د.محمد عيسى صالحية.دار العروبة للنشرو التوزيع.ط.الكويت.1408هـ-1988.

[22]- أي اتبعوا أوامر النبي صلى الله عليه وسلم أحسن اتباع.

[23]- بيان أحوال الصوفية، ابو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي. ص365-366. تحقيق:د.سليمان ابراهيم آتش الناشر للطباعة والنشر والتوزيع.ط1.1414هـ/1994.

أما الشيخ زروق(899هـ) فقد تناول في تعريف المصطلح **الجانب الفكري والتربوي** من حيث تمييزه عن غيره وبيان حكمته ومقصوده، وتوضيح غايته ومراميه، فقال رحمه الله تعالى:"التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه .والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان"[13]

وعموما فقد "حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه"[14] كما قال الشيخ زروق رحمه الله.

أما فيما يتعلق **بسبب التسمية**، فقد ذكر القشيري في رسالته، أنه **اختلف** في نسبة التصوف هل إلى "الصفاء"، لصفاء قلوبهم أم إلى "الصفة"[15] لتجردهم من الحظوة الدنيوية فشابهوا حال أهل الصفة، أم إلى "الصفّ" لما حرصوا عليه من الفضل والأعمال المقربة وطلب التقدم إلى رضوان؟[16].

وقد استبعد الأول من حيث اللغة لأن النسبة إلى الصفا صفوي، واستبعد الثاني (أهل الصفة) لأن النسبة إليها من (صفيّ لا صوفي)، واعترض على النسبة إلى "الصف" لنفس المعطى[17].

وقيل إن النسبة إلى **"صوفانة"** وهي بقلة تنبت بالصحراء، فنسبوا إليها لأنهم اجتزأوا باليسير وبما لا يلتفت إليه، قانعين ببقلة مجتزئين بها[18].

وقيل اختصوا بهذا الاسم لاعتنائهم **بلبس الصوف**[19] لكن هذا لا يستقيم دليلا لما عرف عن كثير من أهل التصوف تركهم للباس الصوف، وقد رجح غير واحد النسبة إلى **أهل الصف**، منهم أبو نعيم الأصبهاني (ت430هـ) في حلية الأولياء[20] وأبو الفضل جعفر الأدنوي المصري

---

[13]- قواعد التصوف.أبو العباس أحمد بن محمد زروق قاعدة13..صححه محمد زهري النجار.مكتبة الكليات الأزهرية. ط2/1976م.

[14]- قواعد التصوف.قاعدة12.مرجع سابق.

[15]- أهل الصفة جماعة من الفقراء كانوا يقيمون في صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت لزهاد المسلمين. انظر تاريخ التصوف الإسلامي.عبد الرحمن بدوي.ص127.ط.الكويت.1975. وشفاء السائل.ص182.

[16]- الرسالة القشيرية 2/551-552.

[17]- نفس المرجع السابق.

[18]- تلبيس إبليس . أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.ص163.ط.بيروت.لبنان1368هـ

[19]- التعرف لمذهب أهل التصوف، محمد بن ابراهيم الكلابذي.ص29-30.تحقيق:عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي.ط.القاهرة.1960.يقول ابن خلدون(ت808هـ):"...وتخيل من لباسهم الصوف في بعض الأوقات تقللا وزهدا أنه شعار لهم" شفاء السائل .ص 182.

[20]- ط.القاهرة .1932.

-/- ثانيا : مفاهيم النشأة والتأصيل

مهما قيل عن نشأة الفكر الصوفي، فإن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها، فهي : **أن بذور التصوف الأولى انبثقت حلقاتها الأساسية من سلوك الرسول الكريم وبعض الصحابة خاصة الخلفاء الراشدين الذين أثر عنهم الزهد والعبادة ومجاهدة النفس، ثم تأصّل في منهج التابعين حتى اكتمل فكرا ناضجا بعد ذلك...**

يقول صاحب "منهاج العارفين": " التصوف عبارة عن حالة وجدانية جذورها في القرآن وفي حياة الرسول ﷺ، وإن لم يكن في عهده ﷺ طائفة باسم "الصوفية" أو "المتصوفة" لأن صحبة النبي ﷺ كانت أعلى الرتب بعد النبوة، وقد فصّل القرآن أصحاب رسول الله ﷺ ثلاث طبقات، وهم: السابقون الأولون من المهاجرين، والسابقون الأولون من أهل المدينة -أي الأنصار- ثم الذين أسلموا بعد أولئك المسلمين الأوائل"[24].

ولم يكن أحد من الصحابة أو من جاء بعدهم يسمّى بالصوفي أو المتصوف، وإنما عرف هذا الاسم بعد ذلك...فهذا صاحب "اللُّمع" يذكر أن أول من دعي بهذا الاسم **"أبو هاشم الصوفي"** الذي قال فيه سفيان الثوري(ت161هـ):"لولا أبو هاشم ما عرفت دقيق الرياء"[25]، واشتهر هذا الاسم بعد ذلك، وكان هذا **قبل نهاية القرن الثاني الهجري**، فصار عنوانا لمن سلك النهج الرباني في العبادة وفضّل مجاهدة النفس واختار حياة التقشف على السؤال والطلب واستغنى بفضل الله في الدنيا ورضوانه في الآخرة عن كل ما يبعد الروح والوجدان عن خالقه...

فالصحابة رضوان الله تعالى عنهم جميعا، كانوا **صوفية** قولا وعملا وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لدينه ولربه ولرسالة نبيه لا لنفسه، ويتّصف بالورع والزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات "فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول صلى الله عليه وسلم من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجّرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم"[26].

وهكذا **نخلص** إلى أن "صحابة رسول الله كانوا الرواد الأوائل لصوفية الإسلام والمسلمين، فقد حرّك الرسول فيهم عقيدة التوحيد الصافي النقي، كما دعاهم إلى هجران

---

[24]- منهاج العرافين.أبو عبد الرحمن السلمي.ص9-10.بتصرف .مقدمة المحقق.

[25]- اللمع في التصوف .السراج الطوسي.ص42.ط1 . القاهرة1960. وانظر منهاج العارفين.ص11. مرجع سابق.

[26]- حقائق عن التصوف .الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله.ص11.منشور بموقع الطريقة الشاذلية الدرقاوية.(shazly.com).

الحياة الدنيوية المضطربة الآثمة، وذكّرهم بالحياة الأخروية وخلود الروح ونشأة الجسد النشأة الثانية، وكان أساس كل هذه المبادئ الإسلامية الخالصة هو الترهيب والترغيب، الخوف من النار والطمع في الجنة"[27].

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن صوفية أهل السنّة اعتبروا مجموعة من الصحابة قدوة لتصوفهم وزهدهم، فصاروا يعالجون حياة كل واحد منهم من زاوية التصوف، ومن منطلق المفهوم المعرفي للتصوف، يقول أبو بكر الواسطي (ت320هـ)[28] الصوفي المشهور": إن أوّل لسان الصوفية ظهرت في هذه الأمة على لسان **أبي بكر إشارة**، فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء"[29] والسبب في أن الصديق الأول للرسول الكريم هو أول لسان الصوفية هو أنه حين خرج عن جميع ملكه وزهد في ماله، قال له النبي الأعظم :"إيش خلفت لعيالك؟" قال أبو بكر: "الله ورسوله"، وهذه الإجابة القلبية النفسية الروحية الطاهرة إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على أنها إشارة جليلة لأهل التوحيد في حقائق التفريد"[30].

فإذن، يتضح من خلال هذا الكلام أن المعنى المفهومي للفكر الصوفي، يرتبط "**بالمفهوم الإشاري** أي الإشارات الوجدانية التي تظهر على صاحبها، وتجعل القلوب تميل إليها، وتمثل علاقة الصوفي بربّه من خلال قوّة الإيمان.

كما ظهر مصطلح **العلم اللّدني والذوقي الذي هو أساس الزهد** عند سيدنا عمر، كما أشار إلى ذلك صاحب "اللمع"، فقد "كان لعمر بن الخطاب مقام معلوم عند أهل التصوف، وقد احتلّت تلك الثورة الصافية عندهم مكانة حياة الرجل الزاهد حقا فاعتبروه صاحب المقام الثابت المأنوق، أعلى الله به دعوة الصادق المصدوق وفرّق به بين الفصل والهزل، كان للحق مائلا وبالحق صائلا وللأثقال حاملا ولم يخف دون الله طائلا"[31]، كما أن لعمر كرامات تعلق بها هؤلاء، كقوله حين كان يخطب لأحد قادته"سارية" في المعركة: "يا سارية الجبل الجبل" فظفر سارية بالمعركة بعد أن نزح إلى الجبل، وقال سمعت صوت أمير المؤمنين ينادي "يا سارية الجبل الجبل" مع بعد المسافة التي كانت تفصل بينهما"[32].

---

[27]- دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب. د.محمدجلال شرف.ص55.دار النهضة العربية.ط.1404هـ/1984.

[28]- محمد بن موسى ، ابي بكر الواسطي، يعرف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد(ت200هـ)، وهو من علماء مشايخ القوم، لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثل ما تكلم هو ، كان عالما بالأصول وعلوم الظاهر. طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن السلمي. تحقيق: مصطفى عبد القادرعطا.ص232.دار الكتب العلمية.ط1.1419هـ/1998.

[29]- اللمع في التصوف.ص168. وانظر دراسات في التصوف الإسلامي.ص 56.

[30]- دراسات في التصوف الإسلامي.ص56. مرجع سابق.

[31]- حلية الأولياء .أبو نعيم.1/38.مرجع سابق.

[32]- اللمع في التصوف. ص173. مرجع سابق.

وعثمان بن عفان أيضا يوضع في صفوة المتصوفة الأوائل "فقد كان حظه من النهار الجود والصيام ومن الليل السجود والقيام ...وكان لعثمان شيئا ليس لأبي بكر وعمر مثلهما صبره على نفسه حتّى قتل مظلوما وجمعه الناس على المصحف"[33].

ومع سيّدنا علي ظهر مفهوم الرباني، فكان يعرف رضي الله تعالى عنه **"برباني الأمة"**، يقول في حقّه أبو نعيم الأصبهاني(ت430هـ): "سيّد القوم، محب المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والعلوم، ورأس المخاطبات ومستنبط الإشارات، راية المهتدين ونور المطيعين،ووليّ المتّقين وإمام العادلين، أقدمهم إجابة وإيمانا وأقومهم قضية وإيقانا، وأعظمهم حلما وأوفرهم علما"[34].

فهذا النص من حلية الأولياء يحيلنا على المعنى المفهومي لرباني الأمة الذي عرف به سيدنا علي، من جمعه بين الورع والتقوى والحياء والعلم والإيمان والحلم والصبر والحكمة، فصار ملتصقا بهذا المعنى.

ثالثا : مفاهيم مرتبطة بالتحول

سار الفكر الصوفي - كما بدأ- في طريقه الربّاني الذي رسمه له جيل الصحابة، وتبعهم في النهج ضرب من التابعين وتابعيهم وهكذا...ساروا جميعا على منهج قويم في التوحيد، فكانوا مثال المسلمين السنّيين المتشبثين بهدي الكتاب والسنة...وكعادة جل المذاهب اشتهر مذهب التصوف في العالم الإسلامي، وذاع صيت رجاله، فأثار الانتباه للمنهج الاعتدالي القويم الذي عرف عن رجاله...وبدأ الناس يدخلون فيه أفواجا ويعملون بأفكاره ومبادئه ...فبدأ "يتسرّب إليه أشخاص وهم يحملون جراثيم عالقة بهم عن غفوة أو عن قصد، فيلوثوا سمعة المذهب الجديد، وينغّصوا هدوء معتنقيه... ويعرضون أئمته للقدح والتشميت بالعلل المترتبة عن هذا التسرب الدخيل على أصالته"[35].

وهكذا ظهرت مفاهيم جديدة لم تكن لها ابعاد في مرحلة النشأة أو التأصيل فابن خلدون(ت808هـ) يرى أن طريقة التصوف لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية...إلى أن دخل في طريقتهم بعض المتأخرين فصيّروا المدارك الوجدانية علمية نظرية وقالوا بأن الله تعالى متّحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته إما بالحلول فيها أو بمعنى هو عينها[36]، يؤكّد هذه الحقيقة د.سامي النشار في كتابه"نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" فيقول:" لقد نشأ التصوف أوّل الأمر في أحضان الكتاب

---

[33]- حلية الأولياء. 55/1. مرجع سابق.

[34]- حلية الأولياء.1/62،61.

[35]- التصوف الإسلامي بين السنية والتطرف. محمد محمد بنيعيش. ص82. مركز الخدمات المتحدة.ط1.1993.

[36] - انظر المقدمة ص616،611 بتصرف.مراجعةد.سهيلزكار .دار الفكر. ط1 1401هـ/1981.

والسنة في صورة الزهد واسترعى أنظار بعض الخاصّة من المسلمين "المعاني الرقيقة" في القرآن، ذات الطابع العميق ورأوا فيها حقائق خفّية أعمق ممّا يرى الناس وسادت نزعة القلق في صدور الخلّص من هؤلاء الناس حين اندفع المسلمون وتزاحموا في غمار الحياة، فلجأوا إلى هذه المعاني يعمقون فيها ويجدون فيها الملجأ...وكما حاول فلاسفة الإسلام أن يدخلوا عقائد اليونان الميتافيزيقية في عقول المسلمين، نرى بعض صوفية الإسلام يلجأون في التصوف إلى بحث ميتافيزيقي تأثّر بكل ما حوله من فلسلفات...أخذوا من الفيدا الهندي وأخذوا من الإشراقة الفارسية واستمدّوا من الفيض الأفلاطوني وتأثروا بأفلاطون وأريسطو ثم وجدوا مصدرا هامّا في المجموعات الهرمسية وانتهوا إلى عقائد مختلفة أهمها عقيدة"الحلول" وعقيدة "وحدة الوجود""[37].

ولم يقف علماء الإسلام والمحقّقون من أهل التصوف مكتوفي الأيدي إزاء هذه الظاهرة الغريبة على الفكر الصوفي السنّي، بل وقفوا بالمرصاد محاولين الرجوع بالتصوف إلى مفهومه الحدّي الأصيل الذي عرفته الثقافة الإسلامية.

وهكذا ظهر التصوف بمعناه الفلسفي أو الإشراقي والتصوف الكلامي وبقي التصوف السني وسطا واعتدالا بين هذه المناهج المتزاحمـــة:

أ. ***<u>الفكر الصوفي الفلسفي أو الإشراقي</u>*** **:** كان من نتيجة ترجمة كتب الفلسفة اليونانية بعد الفتوحات الإسلامية، انتقال هذه الفلسفة إلى العالم الإسلامي...فتابعها بلا شك بعض المسلمين، فظهر "الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، وكان عملهم أقرب إلى الشرح والتعليق "[38].

ونظرا لتباعد المنهج الفكري بين عقيدة الإسلام الصافية التي تقوم على أساس الوحي الإلاهي وعناصر الفلسفة اليونانية التي تقوم على آراء تفسيرية للوجود حيثما استطاعت ....اشتدّ الصراع بين مفكري الإسلام (منهم من كان ينتمي إلى طائفة علماء الكلام) ومفكري الفلسفة "وبقي النزاع بين الاثنين أمدا طويلا لم تخمد جذوته"[39]، وقد حاول غير واحد من هؤلاء الفلاسفة أن يضيف شيئا لأفلاطونيته ولمذهبه الجديد ... وبما أن عددا منهم قد راعى التصوف واستحسنه ...فقد حاولوا –كعادتهم- أن يضيفوا له شيئا فيه جدّة وطرافة، ويؤكد د.سامي النشار أن "أوّل من قام بمحاولة التصوف على ركائز فلسفية في المحيط الاسلامي هو أبو نصر الفارابي (ت339هـ)، وقد أخذها عنه تلميذه ابن سينا (ت428هـ)، فأعاد الصياغة

---

[37]- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 37/1. مرجع سابق.

[38]- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام .30/1.

[39]- المرجع السابق .

وفصّل الغامض وشرح الناهد..."[40]، كما اعتبر أيضا ابن سينا " أعظم متصوفة عصره، لقدرته على المناقشة والجدل والتفاهم مع المتصوفة...ناهجا لغة العقل والبصيرة"[41]، بينما اعتبر ذ.عبد المجيد الصغير "أبا يزيد البسطامي" من أوائل صوفية الحقائق والمؤسس للاتجاه الإشراقي أو الفلسفي[42].

وقد قامت ركائز هذا التصوف الفلسفي على ما يسمّى "**بالمعرفة العليا" أو "المعرفة الإلهية**"[43]، ويقصد بها أن المنهج الصوفي الحقيقي هو "الذي ينتهي بصاحبه إلى معرفة الله عز وجل "[44] ولكن هذا المعرفة لا يمكن أن تأتي صاحبها عن طريق الأقيسة العادية أو حتى المنطقية، بل تأتيه عن طريق النور – الإشراق- الذي ينعكس في مرآة النفس، وهذا النور صدر عن الموجود الأول – الله – الذي هو الكامل من كل وجه.

ب . ***الفكر الصوفي الكلامي*** : علم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين، علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وهذا العلم هو النتاج الخالص للمسلمين [45]، ونتيجة دخول عدد من المتكلمين للتصوف واهتمامهم بالفكر الصوفي ظهرت بعض الأفكار الدخيلة التي تسرّبت للنهج الصوفي بعد أن كان صافيا، فبدأ الكلام عن "فكرة عدم التباين" و"عدم الاتصال" بين الله ومخلوقاته[46] وظهرت فكرة "الحلول والاتحاد".

ففكرة الحلول تعني : حلول الله في مخلوقاته. **وفكرة الاتحاد تعني** : اتحاد روحاني بين الله والإنسان- حسب زعمهم- فيصير علم هذا الإنسان علم الله وقدرته قدرة الله وهكذا [47].

وقد تعرّض عدد من المتصوفة – ممن التزم بهذه الأفكار- للنقد والذم، مما حدا ببعض المتصوفة إلى الغوص في معاني التصوف قصد توضيح مراميه وأهدافه، وتبيينها بشكل واضح، وتحديد المفاهيم الأساسية، وهو النهج الذي سلكه الشيخ زروق رحمه الله تعالى.

---

[40]- التصوف في الميزان.ص.103.

[41]- المرجع السابق.

[42]- إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18و19م.ط. دار الآفاق الجديدة بالمغرب.انظر أيضا كتاب التصوف السنّي وأعلامه بالمغرب.ص88. منشورات المجلس العلمي المحلي بالقنيطرة. سلسلة ندوات وأيام دراسية.

[43]- يقول ابن خلدون(ت808هـ) وهو يرد على ابن سينا صاحب الفكرة:"...وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية، ولا دليل شرعي وإنما هو نوع من أنواع الخطابة" . المقدمة .ص620.

[44]- المرجع السابق .

[45]- نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام .38/1.

[46]- انظر مقدمة ابن خلدون .ص617. مرجع سابق.

[47]- انظر مثلا كتاب التصوف بين السنية والتطرف .ص96 وما بعدها. ومجلة البحوث الفقهية المعاصرة ص 230. العدد 32.رمضان1417هـ.(مقال حكم التصوف في الشريعة).

رابعا: مفاهيم التصحيح من خلال أنموذج الشيخ زروق (ت899هـ)

أ- سيرة من حياته : تناولت عدد من الكتب ترجمة الرجل، وكلها تتفق على ولادته بمدينة فاس في يوم الخميس 18 محرم عام 846 هـ /28 ماي سنة 1442، وتوفيت أمه بعد ولادته في يوم السبت ثم أبوه في يوم الثلاثاء قبل أن يكمل أسبوعه الأول، فكفلته جدّته الفقيه أم البنين حتى بلغ العاشرة وخلال ذلك حفظ القرآن الكريم وتعلم صناعة الخرز [48].

أصله من قبيلة البرانس التي تعيش في منطقة جبل البرانس ما بين فاس وتازا، لوالد كان من أهل الولاية والصلاح، حيث شيّد على مدفنه في القرية بناية أنيقة تشتمل على مسجد جامع ومكان لسكن الإمام وتعرف بزاوية سيدي أحمد زروق يقام بها موسم كل سنة في بداية شهر غشت بإشراف الجماعة القروية "الطايفة"[49] [50]، ويحظى ضريح والده بتعظيم واحترام أهل القبيلة، وقد ورث زروق هذا اللقب عن جدّه الذي كان أزرق العينيين زرقة معروفة في العرق البربري، وحين ولد زروق أسماه أبوه محمدا، لكن ما لبث أن عرف باسم أبيه (أحمد) حين توفي الأب واحتفظ باسمه.

انتظم وهو ابن ستة عشر في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة البوعنانية معاً، وصار يتردد عليهما لدراسة أمّهات كتب المذهب المالكي والحديث والأصول وقواعد العربية، كما درس بعضاً من كتب التصوف، وتتلمذ على أشهر علماء فاس وفقهائها آنذاك، وعددهم يزيد على ثلاثين فقيهاً و محدثاً، كما درس أمهات الكتب، ومنها كتاب التنوير لابن عطاء الله السكندري، وبدأ صلته بمشايخ الطريقة الشاذلية وهو في العشرينات من عمره، فلزم مريدا للشيخ محمد الزيتوني بزاوية الشاذلية في فاس، وكتب تعليقه الأول على حكم ابن عطاء الله وهو في الرابعة والعشرين من عمره (عام 870 هـ) وفي هذه السنة انطلق الشيخ زروق في سياحة أربعين يوماً كاملة بأمر شيخه، زار خلالها ضريح الشيخ شعيب أبو مدين بن الحسين (المتوفى عام 596 هـ / 1198م) في تلمسان، وعاد إلى فاس بعد مخاطر عديدة قابلته في رحلته، وعناءً شديداً تكبّده، ومكث في فاس بعدها ثلاث سنين مشتغلاً بالدرس والتأليف[51].

---

[48]- نيل الابتهاج بتطريز الديباج. أحمد بابا التنبكتي. 130-131.إشراف وتقديم: عبد الحميد بن عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية. ط.1989 .

[49]- هذا الموسم يقام بشكل رسمي وتحضره فعاليات من داخل إقليم تازة، فضلا عن الزوار الذين يحجون إلى المنطقة لحضور الموسم. توثيق خاص.

[51]- انظر حقيقة التصوف الصحيح للشيخ أحمد زروق رضي الله عنه وأرضاه .ص.21 بتصرف جمع وتصنيف المهندس نبيل معين عساف .ط.دار العرب 1986.

ب- منهجه المفاهيمي للتصحيح :

ترك شيخنا أحمد زروق، العديد من المؤلفات التي انتشرت في البلاد الإسلامية، وهي في فنون شتى، في العربية والحديث والحكمة والتصوف والفقه، وكان أشهرها كتبه في التصوف التي من أهمها (قواعد التصوف) و(أرجوزة في عيوب النفس) وشرحها المسمى (الأنس في شرح عيوب النفس) و(إعانة المتوجّه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين) و(عدّة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت) والذي يعرف باسم آخر هو(النهي عن الحوادث والبدع) و(النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنّة) (والنصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية) وشروحه على الحكم العطائية.

وسبب تأليف الشيخ زروق لـ"قواعد في التصوف" هو اختياره لمنهج تصحيحي في الفكر الصوفي، اعتمد "الردّ على المبتدعة من المتصوفة الذين شاهدهم ورأى افتتان الناس بهم حيث قام بحصر بدعهم وعرفها وبيّن فاسدها كما بيّن في كتابه التصوف الصحيح وبيّن قواعده وردّها إلى الكتاب والسنة وسيرة الصوفيين الأوائل وبيّن أن الصوفي الحقيقي هو من يلتزم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويبتعد عن البدع واستشهد في ردوده بأقوال عدد من أهل التصوف أنفسهم، ومن بينهم الشيخ أبو القاسم النصر آبادي الذي قال: "أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع، وتعظيم المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد، وترك الرخص والتأويلات"[52].

1- المنهج النقدي في المفهوم التصحيحي :

قام الشيخ زروق بنقد لكل من حادت نفسه عن اتباع الطريق الصحيح، وترك المنهج الرباني القائم على التحلية والتخلية بما يكفل للنفس المراجعة الصحيحة، فوضع نفسه بذلك في مقدمة "**الصوفية الفقهاء** "أو "**فقهاء الصوفية**" الذي أكثروا من نقد الصوفية إلى جانب مدح طريقتهم لا من باب معاداتهم وإنّما من باب الإصلاح والتصحيح.

وارتكز في مفهومه النقدي على توضيح **وتحقيق المعنى المفهومي للتصوف وربطه بالفقه وأصول التوحيد تصحيحا للعقيدة والعمل**، يقول :" التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان"[53] **فلا يصحّ التصوف عنده بلا فقه**، لأن الفقه يكفي عن

[52]- عدة المريد الصادق.أحمد زروق. ص 27. تحقيق: د الصادق عبد الرحمن الغرياني. ط1.من كلام المحقق. مكتبة طرابلس العلمية العالمية. 1996.

[53]- قواعد التصوف. قاعدة13..مرجع سابق.

التصوف، ولا يكفي التصوف عن الفقه[54]، وهي محاولة جديدة لم نلحظها عند من سبقه من العلماء[55] يؤكّدها في القاعدة26 قبلها بقوله :"كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها"، فظهر مفهوم "**الفقيه الصوفي**"في هذا المنهج، ونقد المفهوم "**الصوفي الفقيه**" لأنه في نظره يصحّ إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصحّ إنكار الصوفي على الفقيه ويلزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصحّ دونه...[56]، ومثل لهذا التصوف بتصوف ابن الحاج في مدخله وميّز بين تصوف هذا الأخير وغيره من أنواع التصوف الأخرى، وفي ذلك يقول في إحدى قواعده "تعدّد وجوه الحسن، يقضي بتعدد الاستحسان [وحصول الحسن لكل مستحسن]، فمن ثم كان لكل فريق طريق: فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي، ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف رحاه ابن الحاج في مدخله، وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربي في سراجه، وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه، وللمتريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته، وللناسك تصوف حواه القوت والإحياء، وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه، وللطبائعي تصوف جاء به البوني في أسراره. وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه، فليعتبر كل بأصله من محله"[57].

2- <u>التصوف السنّي في مفهوم الشيخ</u>

مال الشيخ زروق في منهجه التصحيحي إلى تبيين معنى التصوف السنّي، فدعا إلى التوقف في إصدار أحكام على منظّري الفكر الفلسفي الصوفي كالشيخ ابن العربي وابن سبعين والعفيف التلمساني ومن نحا نحوهم، لأن تصوفهم في رأيه ينطوي على كثير من المبهمات والموهمات، ولا يصح أن يَقرأ كتب أولئك الصوفية إلا عالم متمكن يعتبر المعنى ولا يتقيد باللفظ، ليستطيع فهم المعاني في محالها فلا تزيغ به أهواؤه عن استيعاب ما سطّروه، أما العوام فيحسن أن يبتعدوا عن تلك الكتب خشية على عقائدهم.

يقول في قواعد التصوف:"التوقف في محل الاشتباه مطلوب كعدمه فيما يتبين وجهه من خير أو شر، ومبنى الطريق على ترجيح الظن الحسن عند موجبه وإن ظهر معارض، فمن ثم اختلف في جماعة من أهل التصوف، كابن الفارض، وابن أحلى، والعفيف التلمساني، وأبي اسحق التجيبي، والششتري، وابن سبعين، والحاتمي وغيرهم"[58].

---

[54] - قواعد التصوف. قاعدة210..مرجع سابق.

[55] - هناك مقولة تنسب للإمام مالك، تشير إلى ضرورة الجمع بين الفقه والتصوف وهي:"من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق". انظر الإرشاد والتبيان في الرد على الرؤساء والأعيان من أهل تطوان. مخطوط بالخزانة العامة.رقم80ك.ضمن مجموع.ص230.

[56] - قواعد التصوف. قاعدة26. مرجع سابق.

[57] - قواعد التصوف. قاعدة60..مرجع سابق.

[58] - قواعد التصوف. قاعدة 87. مرجع سابق.

فالتصوف السني يقوم عنده على ترك المبهمات والموهمات، واتباع طريق الحق حيث كان، والميل إلى الوجدان بيقين وإيمان، والنظر لكمال طريق الغير، ونبذ التقليد في الاتباع والاستناد إلى الحقيقة ممن يوثق في دينه وعلمه، لأن "أخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل، ولا وجه في المنقول، مذموم مطلقاً، لاستهزاء صاحبه بدينه"[59]، مما ينفي عنه أهلية التصوف، لأن المؤهّل للتصوف- في نظر الشيخ زروق- تكون"لذي توجه صادق، أو عارف محقّق، أو محب مصدق، أو طالب منصف، أو عالم تقيده الحقائق أو فقيه تقيده الاتساعات، لا متحامل بالجهل، أو مستظهر بالدعوى، أو مجازف في النظر، أو عامي غبي، أو طالب معرض، أو مصمّم على تقليد أكابر من عرف في الجملة"[60]، فالمتصوف الحقيقي هو الذي تقيّده ويسعى بنظره عن أن يقلّد دون استناد إلى حقيقة الزهد ومعرفة وتبين بطريقة القوم، سلوكا ومنهجا.

وبعد هذه الجولة في مفهوم ومعاني التصوف وحقيقة التسمية ومفاهيم التحول ثم بعد ذلك منهج الشيخ زروق في تصحيح الفهوم، يمكن أن نقول: أن الفكر الصوفي لم يكن تعطيلا لحركة الانتاج ولا لدواليب الحياة في مقابل الانزواء والتفرد بالعبادة، فلم يكن إعراضا عن الحياة بقدر ما كان إعراضا عن ما يوجب غضب الله في هذه الحياة، فالتصوف **منهج ربّاني**، سمت به نفوس صحابة رسول الله ﷺ، وتابعيهم وتابعي التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين، فأدعياء التصوف لم يخل بهم مصر ولا عصر، ولم يؤثروا بحال من الأحوال على نقاء التصوف وصفائه من الشوائب والأفكار الدخيلة، لأن التصوف كان تصوفا سنّيا منذ بداياته بكل ما تحمله الكلمة من دلالات لاحتكامه إلى القرآن والسنّة، يقول أبو بكر الطمستاني(ت340هـ) وهو من كبار شيوخ الطريقة:"الطريق واضح، والكتاب والسنة قائمة بين أظهرنا، فمن صحب الكتاب والسنة، وعزف عن نفسه والخلق والدنيا، وهاجر إلى الله بقلبه، فهو الصادق المصيب المتبع لآثار الصحابة، لأنهم سمّوا السابقين لمفارقتهم الآباء والأبناء المخالفين، وتركوا الأوطان والإخوان، وهاجروا وآثروا الغربة والهجرة على الدنيا والرخاء والسعة، وكانوا غرباء، فمن سلك مسلكهم واختار اختيارهم كان منهم ولهم تبعا"[61].

والحمد لله رب العالمين

---

[59]- قواعد التصوف. قاعدة 42. مرجع سابق.

[60]- قواعد التصوف. قاعدة 11. مرجع سابق.

[61]- حلية الأولياء. 382/10. مرجع سابق.